



دور الجامعات الشاذية في استعادة الهوية العربية في شاد

"تجربة التعريب في التعليم العالي في شاد"

د. محمد صالح أيوبه *

المقدمة :

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على تجربة التعريب في التعليم العالي، على اعتبار أن رسوخ اللغة العربية في الحياة العلمية للمجتمع الشادي قد قاوم جميع عمليات التذويب الثقافي التي قامت بها إدارة التعليم الفرنسي منذ استعمار شاد عام ١٩٠٠م، وتمثل ذلك في ظهور اللغة العربية كأحد مطالب المجتمع الشادي في المحافل العلمية والوطنية وبرز ذلك بشكل واضح بعد إنشاء جامعة شاد عام ١٩٧١م (جامعة أنجينا منذ عام ١٩٩٤م)، وبالتالي تم فتح قسم اللغة العربية فيما بعد ضمن مكونات الجامعة في معهد الآداب والعلوم الإنسانية (كلية الآداب والعلوم الإنسانية حاليا)، ولكن هذا القسم كان على غرار أقسام اللغة العربية في الجامعات الفرنسية وكان بالتالي أحد ركائز الاستشراق في الجامعة حيث رأسه المستشرقون لفترات طويلة وعبر عن ذلك برنامجه الدراسي الذي لم يتم تغييره إلا عام ١٩٩٤م، فقسم اللغة العربية بجامعة شاد عبارة عن تعريب خارجي قامت به إدارة التعليم العالي كاستجابة للواقع الشادي الذي يتهم إدارة التعليم العالي بمسايرتها لرغبة إدارة التعليم الفرنسي التي لا تشجع على التعبير عن الإرادة الشاذية والواقع اللغوي الشادي باعتبار العربية أحد أركان هويته الثقافية، وتميز اللغة العربية في شاد بأنها مرنة ومطووعة، لها خصائصها في الاشتقاق، ومزاياها في التوليد،

* أستاذ علم الاجتماع المشارك وعميد كلية اللغة العربية بجامعة الملك فيصل بشاد.

وأسرارها في الصياغة، وطرائقها في التعبير. وهذا ما يفني بترجمة جميع العلوم العصرية التي تحتاجها التنمية العلمية في التعليم العالي في شاد. فاللغة العربية في شاد ظاهرة اجتماعية لها دورها الحضاري، فقد كانت - وما زالت - لغة العلوم البحتة مثل الكيمياء والفلك والحساب، يدل على ذلك ما خلفه علماء شاد السابقون، فقد أورد الإمام محمد يلبوف في كتابه: إنفاق الميسور، اهتمام أهلها بعلم الكيمياء والفلك مما جعلهم يتعدون عن الفقه وبعض العلوم الشرعية.^{٢٠}

وبين أيدينا اجتهادات لبعض العلماء في هذه العلوم نستفيد منها عملياً نحن الأحفاد إلى اليوم، وفي أعمال الأستاذ/عباس عبد الواحد - الفلكية خاصة المواقيت - خير دليل على ذلك، فقد تلقى مبادئ العلوم الفلكية عن والده في مدينة بلتن وهو إمام المسجد الكبير فيها، ويستفيد منها حتى في الوقت الحاضر في تحديد أوقات الصلاة في شاد وإسماكية شهر رمضان من كل عام، ومما يؤكد دقة حساباته الفلكية أنها وبالمقارنة مع إسماكية هيئة الأرصاد المصرية التي تخرجها توقيت العاصمة أنجمينا لا تختلف إلا دققة في بعض الأحيان وتتطابق تماماً في أغلب الأيام، وهذا الفلكي المجتهد عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بجمهورية شاد ويعرض إسماكيته على أعضاء المجلس قبل وصول الإسماكية المصرية بأسبوع على الأقل، ومع العلم أنه يعمل بطريقة حسابية تقليدية وبدون آلات مساعدة^{٢١}. فالسعي نحو ربط اللغة العربية بالعصر ومدى مواكبتها لتطور الحياة العلمية بالقدرة على التعبير عن مصطلحاتها هو الهدف الأساسي الذي يود الوصول إليه التعريب في التعليم العالي، فأي خطوات تم قطعها في هذا المسعى؟.

تطور التعريب في شاد:

ولا ترجع أهمية التعريب ووضع المصطلحات العلمية في مسيرة التعليم العالي الشادي إلى الحاجة العصرية الملحة بسبب الاندفاع نحو التزود بمنجزات الغرب العلمية فحسب، ولكنها في الحقيقة امتداد لحركة سبق إليها علماء العربية قديماً، فقد بدأت

حركة التعريب أو الترجمة في الحضارة الإسلامية منذ عهد بني أمية أيام خالد بن يزيد ، ثم بلغت أوجها أيام العباسيين ، لاسيما في عهد المأمون . فقد استوعبت الحضارة الإسلامية علوم الأولين وعربتها وصارت جزءاً منها (الكلمات المعربة عربية أو بقوة العربية) حتى لا يكون ثمة فرق في صحة الاستعمال بينها وبين تلك التي تكون عربية الأصل بحيث يصح لك أن تستعمل كلمة (رصاص) الأعجمية المعربة في كل موضع تستعمل فيه كلمة (صرفان) العربية كما يقول الشيخ عبد القادر المغربي^{٣٠} ، وما يؤكد هذا أن الباحث وجد في تعامله مع مخطوط محلي في شاد هو (تبصرة الحيران من هول فتنة الزمان) للشيخ / عبد الحق السنوسي الترجمي الذي كتب في بداية الاحتكاك بالثقافة الفرنسية كلمات : الماهية المعربة عن الفارسية ، والباور والبرنيطة القادمة من إيطاليا ، والتبماك التركية ، وكفران الفرنسية^{٣١} . وقد زاد من أهمية التعريب قوة الاتصال بين الناطقين بالعربية والناطقين باللغات الأوروبية خاصة الفرنسية ، وأدت إلى تغيير في طبيعة التعريب نفسه ، فيلاحظ كثرة التغيير في هيئة الألفاظ الأعجمية المعربة قديماً (مثل الكلمات التي عربها الترجمي في رسالته "تبصرة الحيران" التي سبق ذكرها) ، وقلة هذا التغيير في الوقت الحاضر ، مما أدى إلى إبقاء المعرب على هيئته أكثر من تغييره في عصرنا على عكس أمره قديماً ، ويمكن الاستشهاد هنا بكلمات متداولة في التعليم العالي التشادي مثل (انثروبولوجيا ، واساتستيك ، وبيولوجيا ، وديموغرافيا .. الخ) ، وتراجع قلة التغيير في المصطلحات المعربة إلى مرونة ألسن العرب المحدثين على أصوات الأعاجم وطرق نطقهم للمصطلحات ، بسبب قوة الاتصال العلمي التقني بين الحضارة الإسلامية والغرب بفعل عوامل الاستعمار والتجارة والثقافة والاجتماع . وكان سببها وأتباعه ممن لم يشترطوا إلحاق المعرب بأبنية العرب قد فطنوا إلى ما سينزل إليه الأمر فكانوا رفقاء في حكمهم بالعربية والناطقين بها^{٣٢} .

فتطور التعريب في شاد يمكن أن ينظر إليه كجزء من عملية التعريب داخل الحضارة الإسلامية العربية رغم خصوصية شاد باعتبارها خضعت لعملية نذوب ثقافي فرنسي على جميع المستويات، ولكنه لم يؤثر على البيئة اللغوية الإسلامية للمجتمع الشادي رغم التشوهات الكبيرة التي أصابتها.

مستويات التعريب في التعليم العالي الشادي :

يمكن دراسة عملية التعريب في التعليم العالي الشادي على مستويات مختلفة تعرض في هذا البحث إلى اثنين منها :

المستوى الأول : النقل من غير العربية إلى العربية وبالتحديد من الفرنسية إلى العربية، وهو القسم الأكثر شيوعاً في السابق، باعتبار أن عملية الإبعاد للغة العربية عن المجالات العلمية واحتماء اللغة العربية بالعلوم الإسلامية قد خلق فجوة مصطنعة بين المثقفين بالعربية والعلوم البحتة، والمخرج الوحيد أمامهم للاحتكاك بالعلوم البحتة هو نقلها عن الفرنسية، نظراً لخوف الفرنسيين والمثقفين بالفرنسية (الفرانكوفونين) من تسرب الأفكار العربية الحديثة عبر العلوم الجاهزة والقادمة من البلدان العربية، وقد عبر عن هذه النظرة قرار وزارة التربية الوطنية الشادية والقاضي بضرورة تدريس المواد العلمية في المدارس الإعدادية والثانوية بالفرنسية، والذي خفف فيما بعد بأن تدرس هذه المواد بالعربية منقولة حرفياً عن الفرنسية^٦.

وعن طريق النقل من غير العربية إلى العربية ثم تعريب بعض الأقسام الجامعية في البداية خاصة قسم علوم الأحياء بكلية العلوم التطبيقية حيث يدرس فيه نفس المقرر الفرنسي منقولاً عن العربية، وشعبة التاريخ باللغة العربية التي تم تعريبها منذ عام ١٩٩٦ م، وقسم اللغة العربية الذي شهد هذه العملية منذ إنشائه على اعتبار أنه منقول من نموذج الأقسام العربية في الجامعات الفرنسية وأكبر دليل على ذلك المواد والأساتذة الذين درسوا فيه منذ البداية إلى عام ١٩٩٤ م.

المستوى الثاني: يقوم المستوى الثاني في تجربة التعريب في التعليم العالي الشادي على التصرف في المصطلحات العلمية وجعلها قريبة من الذوق الأصيل في العربية سواء بأن يرد المصطلح إلى الأصل العربي أو إلى تجارب الشعوب العربية التي سبقت شاد في التعريب . والتعريب هنا بمعنى إخضاع المصطلح العلمي الأجنبي لأساليب الذوق اللغوي الأصيل في العربية، وهي تجربة في التعريب نجد سندها في العربية من القدماء والمحدثين، وفيما جاء في محضر إحدى جلسات الجمع اللغوي المصري وهو: (إن التعريب أن يدخل العربي الذي يعتد بعربيته الفطرية لفظاً أعجمياً في كلامه فيعطي حكم اللفظ العربي) ^{٣٧}.

فهذا المستوى من التعريب يترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لذوي الأصالة والدرية والمران من الباحثين في العربية، كي يغنوا العربية في شاد بالفنين، وهذا ما تقتضيه سنة التطور اللغوي بحسبانها ظاهرة لأزمة لسائر اللغات الحية، وفي كل ذلك تيسير للمنشغلين والمهتمين بتعريب التعليم العالي .

ومن الملاحظ أن المستوى الثاني من التعريب يتيح الحرية لإبداعات الباحثين في تعريب العلوم من الناطقين بالعربية في سعيهم لتطويع اللغة العربية لتستوعب منجزات التطور العلمي الحديث في الغرب، لكن ليس مجذا فيره كما يقولون بل بعد تنقيته وتقريبه إلى الذوق العربي وهذا يتيح الفرصة للتعاون بين أبناء الناطقين بالعربية لكي لا يكرروا التجارب، فبمنجزات التعريب في أي بلد عرب أو ناطق بالعربية يمكن الاستفادة منها في البلد المحتاج إليها، فقسم الأحياء بكلية العلوم التطبيقية بجامعة انجينا يمكن أن ينشأ على غرار القسم المناظر له في أي بلد عربي تمت فيه تجربة تعريب هذا القسم، أما تعريبه بالطريقة الأولى فيعتبر هدراً للإمكانات التي من الممكن أن تستعمل في عمل علمي آخر . وقد أشار إلى هذا المستوى الأستاذ الكرمل في حديثه عن شروط الأخذ من لغة حيث قال: (لا يشترط في الأخذ أن تأتي الكلمة العربية مطابقة (كل المطابقة) للكلمة

الواردة في اللغة المأخوذ منها ، بل قد يجوز أن يكون أخذ منها بعض معناها ، أو أن العرب تصرفت في معناها بعد نقلهم إياها إلى لغتهم ، وربما صحقتها أيضاً) .^٨ .

نماذج من المؤسسات المعربة في التعليم العالي الشاذي :

أدت المستويات السابقة من التعريب إلى التأثير في هيكل التعليم العالي حيث تم تعريب عدد من الأقسام مثل القسم العربي بالمعهد العالي للمعلمين ، وقسم الأحياء بكلية العلوم جامعة أنجينا ، ومع ذلك فإن تعريب قسم اللغة العربية بجامعة أنجينا يعتبر أول تجربة في التعليم الجامعي ، وكانت الأساس في التجارب التالية مثل تجارب القسم العربي بالمعهد العالي للمعلمين الذي كان يدرس نفس مواد القسم الفرنسي معربة إلى اللغة العربية حتى سنة ١٩٩٣م حيث اتخذ وزير التربية الوطنية قراراً بتشكيل لجنة لوضع منهج علمي يتجاوز التعريب الحر في بحث أعطى الوزير الحرية للجنة بالاستفادة من تجارب الدول العربية في هذا المجال ، وهذا ما حدث فعلاً ، حيث وضعت اللجنة برنامجاً دراسياً حديثاً يماثل إلى حد كبير مناهج معاهد المعلمين العليا في البلدان العربية . وفي عام ١٩٩٤م شكلت جامعة أنجينا لجنة لدراسة وضع منهج القسم العربي مع إعطاء مساحة من حرية لکي يواكب المنهج الجديد التطور العلمي في أقسام اللغة العربية المناظرة في البلدان العربية ، وبعد أن قامت اللجنة باللازم اصطدمت بالعديد من العراقيل في التنفيذ ، ولكن طبقاً من اقتراحات اللجنة الكثير ، خاصة فيما يتعلق بطبيعة المواد وعدد الساعات ومفردات بعض المواد الدراسية . وحدث تطور في التعريب في التعليم العالي بعد مؤتمر الأحوال العامة للتعليم الذي أجاز تعريب جميع الأقسام العلمية في التعليم العالي ، ولكنه أعطى فرصة للجامعة ومؤسسات التعليم العالي بأن يكون ذلك حسب الإمكانيات المتاحة ، فاستغلت الجامعة ومؤسسات التعليم العالي هذه الفقرة فأخترت العملية ، ولكن في العام الدراسي ١٩٩٥م - ١٩٩٦م عُرب قسم التاريخ بكلية الآداب ، وفي عام ١٩٩٦م - ١٩٩٧م سمح بتعريب البيولوجيا بكلية العلوم التطبيقية بجامعة أنجينا .

مشكلات التعريب في التعليم العالي الشادي :

- يواجه التعريب في التعليم العالي في شاد مشكلات عديدة يتجسد أهمها فيما يلي :
- ١- عدم المرونة في التعريب، وتمثل في حرفية التعريب، وهذه المشكلة ناتجة عن عدم قبول إدارة التعليم العالي للتعريب أصلاً من ناحية، وكذلك عدم وفرة المتخصصين في مجال العلوم المراد تعريبها من ناحية أخرى .
 - ٢- يواجه التعريب قضية عدم معادلة المناهج والبرامج الدراسية والمواد العلمية لمثيلاتها في البلاد العربية، وهذا ناتج عن اختلاف فلسفة التعليم التي تنبثق منها هذه المناهج وعن عملية التقليد الأعمى لما هو سائد في إطار التعليم الفرنسي .
 - ٣- ضعف الإرادة السياسية والإدارية والمالية لإجراء عملية تعريب التعليم العالي رغم الضغط الشعبي والطلابي المحليين .
- وقد خلقت المشكلات السابقة وضعاً اجتماعياً وسياسياً وتربوياً ساعياً نحو إحداث تغيير في مسيرة التعليم العالي، ولم تؤد جميع التدابير التي اتخذت في إطار جامعة أنجينا والمعهد العالي للمعلمين إلى نتائج مرضية، فطرحت جهات عديدة فتح مؤسسة للتعليم الجامعي باللغة العربية كتحقيق لهذا المطلب الهام، فكان إنشاء جامعة الملك فيصل في العام الدراسي ١٩٩١م - ١٩٩٢م كامتداد لمركز فيصل الإسلامي الذي يضم العديد من المؤسسات التعليمية واعتبر هذا الحدث أهم تطور في تعريب التعليم العالي .
- ومن الواضح أن جامعة الملك فيصل تتجاوز جميع مشكلات التعريب في التعليم العالي الشادي فهي تقدم جميع العلوم باللغة العربية أساساً مما يجعلها في انسجام تام مع الأرضية اللغوية العربية في شاد وتقدم للطلاب مناهج علمية - معادلة تماماً - لمناهج العربية (خاصة جهود المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة) مما يجعلها مقبولة لدى القاعدة العلمية في شاد تاريخياً وهي أخيراً تقضي على ضعف الإرادة السياسية والإدارية والمالية بأن تقدم لها العلوم معربة بأقل التكاليف .

وقد شعرت الدولة الشادية بأهمية الدور الذي تقوم به جامعة الملك فيصل في خدمة المجتمع الشادي وإعداد الأطر المستقبلية باللغة العربية في الأساس مع تضمن منهجها للغة الفرنسية كلفة مساعدة فساهمت في بنيتها الأساسية وتسييرها .

الآفاق المستقبلية :

وتمثل الآفاق المستقبلية في تثبيت المؤسسات والأقسام المعربة حالياً ، والسعي بصورة جادة نحو فتح أقسام معربة في جميع مؤسسات التعليم العالي الشادية وذلك من أجل إعداد أطر مؤهلة ودراسة باللغة العربية بإمكانها تحمل مسؤولية حماية التعريب في التعليم العالي الشادي .

توصيات البحث :

وقد توصل البحث إلى العديد من التوصيات أهمها :

- ١- الاستفادة من تجارب البلاد العربية في التعريب وبالأخص تجارب الجماهيرية العظمى وجمهورية مصر العربية نظراً لتقارب المنهج العلمي في شاد وكل من الجماهيرية ومصر عبر التاريخ ، مما يجعل تجربتهما مقبولة في الأوساط العلمية .
- ٢- السعي نحو إنشاء إدارة لتعريب التعليم العالي في شاد تساهم فيها الدولة الشادية والمؤسسات الجامعية .
- ٣- المساهمة في فتح قسم اللغات والترجمة بكلية اللغة العربية جامعة الملك فيصل لإعداد الباحثين المتخصصين في مجال التعريب والترجمة .
- ٤- ومن هنا تظهر أهمية الدور الفعال لعملية تعريب التعليم العالي في شاد ومدى انعكاس ذلك على السعي نحو استعادة الهوية العربية للمجتمع الشادي .

الهوامش:

- ^١ بلو - الإمام محمد: إنفاق الميسور، المطبعة الأميرية، كانو (ب. ت) ص ٥-٧ .
- ^٢ عبد الواحد، الأستاذ عباس: صحيح المقال في معرفة ظل الزوال، المطبعة المدرسية، انجمينا، ١٩٩٦م .
- ^٣ الكاروري، د. عبد المنعم محمد الحسن: التعريب، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ١٩٨٦م، ص ٢٧٨ .
- ^٤ أيوب، د. محمد صالح: الدور الاجتماعي والسياسي للشيخ عبد الحق السنوسي الترجمي (رسالة دكتوراه في علم الاجتماع غير منشورة) جامعة أم درمان الإسلامية ١٩٩٥م، ص ٢٧٣ - ٢٧٥، ومعنى هذه الكلمات بالعربية: - ماهية: من الفارسية بمعنى شهر والنسبة إليه ما هي بمعنى شهرية، وقد غيبت إلى الماهية، وهي غير الماهية العربية التي تقال لماهية الشيء المنسوب إلى ما هي (مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ٨/ ٣٦٤) .
- البابور: وهي معربة من الإيطالية ومثيلاً في اللغة الأوروبية وتعني البحار، وهي آلات بخارية ويعرفها بعضهم إلى وابور .
- كفران: تحريف وتعريب للكلمة الفرنسية caporal وتعني الفريق في الرتب العسكرية .
- برنيطة: وأصلها إيطالية ومعناها كساء الرأس (القبعة) .
- المصدر: قاسم، د. عون الشريف: قاموس اللهجة العامية في السودان، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط ٢ ١٩٨٥م، ص ٦٨، ١٠١، ١١٠٧ .
- ^٥ الكاروري، د. عبد المنعم محمد الحسن: مرجع سبق ذكره ص ٢٧٥ .
- ^٦ وزارة التربية والتعليم، قرار رقم (٢٧٦) ١٩٩٤م، والخاص بإدخال الشائبة اللغوية في النظام التربوي الشادي، صدر في انجمينا بتاريخ ١٣/ ١٢/ ١٩٩٤م .
- ^٧ الكاروري، د. عبد المنعم محمد الحسن: مرجع سبق ذكره ص ٨٣ .
- ^٨ الكرمل، الأب اتستاس ماري: نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (ب،ت) ص ٨٠ .